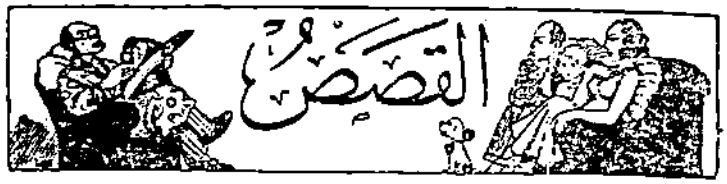

المجنونة

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأديب إبراهيم عبد الرحمن خليل

كان السيد ماتيو داندولان والسيد روبرت دي بونيير يتجاذبان الأحاديث عند ما وجه داندولان نظر صديقه الى طيور برية قائلا : تذكرني هذه الطيور باصديق بحادث مؤلم من حوادث الحرب ... أنت تعرف أملاكي في ضاحية « كورمي » التي أقيم فيها منذ احتلها البروسيون ، وكانت جارتي « جادي » قد اعتراها نوع من الجنون بسبب حوادث مفجعة تتابعت عليها فأثرت فيها تأثيراً عنيفاً ، فقد فقدت المسكينة في شهر واحد أباها وزوجها وابنها الصغير ، وكان حديث الولادة ، وهكذا عند ما يزور الموت منزلا أول مرة ، يعود اليه ثانية كأنه يعرف الطريق ... صرعها الحزن فلزمت الشابة البائسة فراشها وهي تهذي ستة أسابيع كاملة وتوالت عليها أزمات حادة ظلت بعدها خامدة عديمة الحركة ، لا تكاد تتناول شيئاً من الطعام إلا بالجهد الشديد ، لا يتحرك فيها إلا عيناها ، وفي كل مرة حاولوا تغيير موضعها كانت تصرخ بشدة كأنما يراد قتلها ، فتركت نائمة كما شاءت وتوفرت على خدمتها سيدة عجوز طيبة القلب كانت تقدم لها الماء من وقت الى آخر مع قطعة من اللحم البارد تلوكها بين أسنانها ... ما الذي كان يدور بخلدها المشتت ؟ أكانت تحلم بالذين ماتوا ؟ لم يعرف ذلك أبداً ، لأنها لم تتكلم أبداً ، ولأن فكرها المضمحل ، ظل عديم الحركة كالماء الراكد .

ومرت خمسة عشر عاما وهي على تلك الحال ؛ مغلقة النفس ، خامدة الحركة ... جاءت الحرب ، وفي الأيام الأولى من ديسمبر ، تغلغل البروسيون في كورمي .

وكان الجو باردا والثلج يتساقط ، إني أذكر هذا اليوم كأنه الأمس القريب ، وكنت ممدداً على كرسي مستطيل بجوار نافذتي مريضاً بداء المفاصل ، أسمع وقع أقدامهم الثقيلة وخطواتهم الرتيبة ، وأراهم من النافذة صفوفا لا نهاية لها يبدون في حركاتهم المنتظمة كأنهم دمى تتحرك بخيوط مشدودة ، وقد أمر القائد بتوزيع الرجال على سكان القرية فكان نصيبي منهم سبعة عشر رجلا ونصيب جارتي البائسة اثنا عشر رجلا ، يتهم القائد وهو رجل عسكري قديم ، حاد الطبع ، غليظ الخلق . قيل له أثناء إقامته بالمنزل إن ربة الدار سيدة مريضة لم تفارق فراشها منذ خمسة عشر عاما متأثرة بحزن شديد أصابها ولكنه لم يقتنع بهذا ، من غير شك ، فقد توهم أن الذي منعها من استقبالهم إنما هو كبرياؤها واشمئزازها أن ترى البروسيين أو تحادثهم ، فطلب مقابلتها وأدخل إلى غرفتها ، فما إن رآها حتى خاطبها بصوت جاف خشن وبلهجة ركيكة فيها كثير من التحريف ... أرجوك ياسيدتي أن تنهضي من فراشك وأن تنزلي لكي يراك الجميع .... ولكن المرأة المسكينة أدارت نحوه عيونا مبهمة فارغة ولم تجب . فاعاد بلهجته الغريبة مرة ثانية .. إذا لم تنهضي بارادتك فسنجد وسيلة لأرغامك على نزهة فريدة .. ولكن المسكينة لم تأت بأي إشارة ، كانت دائماً عديمة الحركة كأنها لا تراه ، فتملكه الغضب ، وظن أن السكوت منها علامة احتقار بالغ له ، فأضاف مهدداً — إذا لم تنزلي ياسيدتي غدا ... ثم أدار وجهه وانصرف .

وفي اليوم التالي ، أرادت خادمتها العجوز الطيبة أن تلبسها ملابسها قبل أن يحضر الضابط ولكن المجنونة صرخت بأعلى صوتها في هياج شديد ، ولم تجد أي محاولة معها . وفي هذه اللحظة صعد الضابط مسرعاً ليرى تنفيذ أوامره ، فجرت الخادم على أقدامه مستعطفة صارخة ، إنها لا تريد يا سيدي ، انها لا تريد ، اصفح عنها ، انها بائسة تعسة .

ظل الجندي القديم ، مشبكا ذراعيه كاظما غيظه ، وفجأة انطلقت منه ضحكة عالية ، وأعطى بالألمانية أمراً إلى رجاله ، ورأى الرجال يحملون المريضة بفراشها كما يحملون جريحاً في الميدان ، ورأى في المؤخرة رجل يحمل حزمة ملابس نسائية .

المجنونة ساكنة هادئة لا تقاوم ، ولا تبالي بالعواقب ،